

باب الدُّعاء مفتوح في كلِّ الأوقات



والدُّعاء دائماً له هدف وغاية، ولا فرق بين حاجةٍ صغيرةٍ تطلبها، وترجو أن يحقَّ رَقْها إياك، أو حاجةٍ كبيرةٍ. قال تعالى: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلَا يَسْتَعْجِلُوا إِلَيَّ وَلَئِيْؤُمْ مِّنْذُوا إِلَيَّ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) (البقرة/ 186). عندما ترفع يديك وتدعو أو تتضرَّع، أو تبتهل وتتوسَّل، جهراً أو سراً، ففي كلِّ الحالات، أنت تدقُّ باب إياك تعالى. إنَّ إياك لم يضع شروطاً مسبقةً ومواصفات محدَّدة، أو دفتر شروط للدُّعاء، فالباب مفتوح ومتاح للجميع، فالمنافق بإمكانه أن يدعو كما يفعل المؤمن، والحريص أو البخيل يسأل إياك كما يسأله الفقير والمسكين، وقد يطمع مَنْ هو على باطلٍ في زيادة منفعته، فيُدلي بدلوه في مواسم الدُّعاء.

إنَّ الدُّعاء عبادة خالصة، ولو لم يكن فيها مصلحة للإنسان، لما فتح إياك له هذا الباب من أبواب رحمته، لذلك دعانا إلى أن نسأله ونلجأ إليه سبحانه في الشدَّة والرخاء، في الخوف والأمن، وفي العُسْر واليُسْر، ففي حديثٍ قدسي، يقول رسول إياك (صلى إياك عليه وآله وسلم): «عبدني تعرِّف إليَّ في الرخاء أعرفك في الشدَّة». ولا ينبغي لأحدٍ أن يتوهَّـم أنَّ الدُّعاء معناه أن تطلب من إياك سبحانه

حاجةً دنيويةً يتعسّر الحصول عليها، أو أن تطلب من الله أن يساعدك في الخروج من ضيق، أو عسرة أنت فيها.. هذا تصوّرٌ يمسح مفهوم الدُّعاء، يحجّـمه. جوهر الدُّعاء أنَّهُ عبادة كباقي العبادات، بل هو مخّ العبادة، كما ورد في الحديث، لكن من دون طقوسٍ ولا مواقيت.

يقول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): «إنَّ أعجز الناس مَنْ عجز عن الدُّعاء». الدُّعاء سلاح، تربوي لإعادة صياغة علاقاتنا، وسلاحاً يواكب رحلتنا اليومية. إنَّنا نعيش مرحلةً من سماتها انتشار ظاهرة القلق، والإحباط، واليأس، والقنوط من أيّ تغيير ينقلنا إلى الأحسن، على أكثر من صعيد. إنَّنا بالدُّعاء الصادق نستطيع استعادة الثقة بالله، والخروج من ظاهرة الإحباط والقلق، على مستوى الأفراد والجماعات. والملاحظ أنَّ معظم الأدعية في القرآن الكريم جاءت بصيغة الجمع، وهي بمثابة دعوة صريحة لجعل هذا النوع من الدُّعاء سلوكاً عاماً بين المسلمين، والنتيجة واضحة وبيّنة ومعروفة: الدُّعاء يتحوّل إلى وسيلةٍ لشدِّ العُرى داخل المجتمع الإسلامي، باعتباره مجتمع تكافلٍ وتعاونٍ، وتحابٍ. فحين تزوج في دعائك بين هموم الدُّنيا من حولك وهموم مجتمعك وهموم آخرتك، فهذا يعني أنَّ بوصلتك لم تنحرف، فهدفك وجه الله، ولا وجه غيره، فإن دعوت، فمن موقع عبوديّتك وفقرتك وحاجتك إلى رحمة الله ورأفته وحنانه. نعم، في ساحة الدُّعاء، نمارس عبوديّتنا بحريّة كاملة، وباختيار واعٍ، تدفع بروحك وصوتك في معارج ملكوت الله، فتصبح جزءاً من منظومة كونية تُسبِّح الخالق وتمجّده.

إنَّ الدُّعاء يعبّر عن منتهى الشفافية والإخلاص لله تعالى، ويُبْرِز أصالة الإنسان ومدى ارتباطه بربه، وشعوره الروحي والإيماني الصادق بهذه العلاقة، لأنَّ الدُّعاء في مفرداته وأبعاده يجدُّ روحية المؤمن، ويعمل على إبقاء جذوتها حيّة في مشاعره وأفكاره وحركته في الحياة. من هنا، فإنَّ الدعاء وجه من وجوه الشُّكر، فإذا ما عشنا الرخاء والطمأنينة في أوضاعنا النفسية والمالية والاجتماعية وغيرها، فلا بدَّ وأن يبقى دعاؤنا حيّاً وحاضراً، وألا نعيش السهو والغفلة عن الله، ونركن إلى الطمأنينة، وننسى فضل الله علينا في السراء والضراء، فمن التأدّب مع الله أن نشكره على نِعَمه وألطافه، وأن نستحضره أيّام رخائنا وشدّتنا، ومن حقّه علينا أن ندعوه في كلِّ حالاتنا. وأصدق حالات الدُّعاء، عندما يتوجّه المرء إلى الله، ولا يكون عليه أيّ شكل من أشكال الضغوطات، ويكون باله مرتاحاً، فيمارس الشُّكر من موقع الوعي والتقدير لواجباته تجاه خالقه.